مجلة الإحياء، المجلد 26، العدد: 39، جويلية 2026، ص - ص: 215-230
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

جهود الإمام محمد البشير الإبراهيمي في خدمة الحديث النبوي
من خلال كتاب آثار محمد البشير الإبراهيمي

The efforts of Imam Mohammed Al-Bashir Al-Ibrahimi in serving the Prophetic Hadith
Through the book Athar Mohammed Al-Bashir Al-Ibrahimi

د/ حكيم حركاتي[1]
Hakim HARKATI
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1
hakim.harkati@univ-batna.dz

د/ طارق حميش
Tarek HAMICHE
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة البويرة
tarikhamiche90@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2026/05/31 تاريخ القبول: 2026/07/27

الملخص:
ترك لنا النبي ﷺ ميراثا من العلم عظيم، ومن أخذه أخذ بحظ وافر، ولم يزل العلماء يتسابقون إلى العناية بحديث رسول الله ﷺ وخدمته، والإمام الإبراهيمي ممن بذل جهودا واضحة في خدمة الحديث النبوي الشريف، وقد تجلى ذلك في أعماله وخطاباته ومقالاته، ومن تمعن في حياته وجد الكثير من الدروس في خدمة هذا الموروث الديني، وإن كان قد ضاع من ذلك الكثير إلا أن نجله أحمد طالب جمع لنا دررا من علم أبيه، أودعها في كتاب عنوانه: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وقد نفع الله به خلقا كثيرا. وتم إظهار هذه الجهود من خلال دراسة موضوعية لما استعمله من الأحاديث النبوية.
ومن بين أهم نتائج هذا البحث أن خدمة الحديث النبوي لم تقتصر على جهود المحدثين المتقدمين، بل امتدت لتشمل علماء الإصلاح في العصر الحديث، ومنهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
الكلمات المفتاحية: جهود الإبراهيمي؛ خدمة الحديث النبوي، كتاب الآثار.

Abstract:
The Prophet bequeathed to us a profound inheritance: knowledge, which constitutes the true inheritance of the prophets. Whoever attains it secures a meaningful and abundant share. Throughout history, scholars have diligently striven to draw from the rich source of the Prophet's Hadith and to dedicate themselves to its preservation and service. Among those who

[1] المرسل المؤلف

rendered distinguished service to the Prophetic tradition was Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, whose intellectual and scholarly contributions are clearly reflected in his writings, speeches, and broader corpus of work.

A close examination of his life offers valuable insights into proper engagement with and service to this religious inheritance. Although a considerable portion of his contributions has been lost over time, his son, Ahmad Talib, succeeded in preserving select and significant elements of his father's efforts in a compilation entitled The Works of Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, a work that has proven beneficial to many. And these efforts were demonstrated through a thematic study of the Prophetic Hadith.

And One of the principal findings of this study is that the preservation and service of the Prophetic Hadith were not limited to the endeavors of the classical hadith scholars, but also encompassed the contributions of modern reformist scholars, including Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi.

Key words: Efforts of Al-Ibrahimi; serving the Prophetic Hadith, the book of Al-Athar.

مقدّمة:

يُعدّ العلم في التصور الإسلامي أساسًا متينًا لحفظ الدين واستمراريته، إذ ورثه العلماء عن الأنبياء، فحملوا أمانته وسعوا إلى نشره وخدمته عبر العصور. وقد حظي الحديث النبوي الشريف بعناية فائقة من قبل أهل العلم، الذين بذلوا جهودًا عظيمة في جمعه وشرحه والدفاع عنه. ومن بين الأعلام الذين أسهموا إسهامًا بارزًا في هذا المجال الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الذي تجلّت عنايته بالسنة النبوية في مختلف أعماله الفكرية وخطاباته الإصلاحية.

وتمثّل دراسة جهود هذا الإمام في خدمة الحديث النبوي مدخلًا مهمًا لفهم منهج العلماء في التعامل مع هذا الموروث، واستنباط منهجه الذي يمكن أن يُسهم في إحيائه في الواقع المعاصر. وعلى الرغم من ضياع جزء من تراثه، فإن ما قام به نجله أحمد طالب من جمع آثار والده في مؤلف مستقل يُعدّ مصدرًا مهمًا يُعين الباحثين على الوقوف على جوانب من هذه الجهود المباركة.

إشكالية الدراسة

تنطلق هذه الدراسة من الإشكال الرئيس الآتي: ما معالم منهج الإمام محمد البشير الإبراهيمي في التعامل مع السنة النبوية، وكيف وظّفها في بناء مشروعه الإصلاحي؟

ويتفرع عن هذا الإشكال عدد من الأسئلة، من أهمها:

- ما مظاهر عناية الإمام الإبراهيمي بالسنة النبوية؟
- ما الأسس التي قام عليها منهجه في فهم النصوص الحديثية؟
- كيف وظّف الحديث النبوي في معالجة القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية؟
- ما أبرز السمات التي تميز بها خطابه الحديثي؟

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من تناولها جانبًا من الجوانب التي لم تحظ بالعناية الكافية في الدراسات المتعلقة بالإمام محمد البشير الإبراهيمي، وهو منهجه في التعامل مع السنة النبوية وتوظيفها في مشروعه الإصلاحي. كما تسهم في إبراز حضور الحديث النبوي في خطابه الفكري، والكشف عن الكيفية التي استثمر بها النصوص النبوية في معالجة القضايا العقدية والتربوية والاجتماعية والسياسية.

وتستمد الدراسة أهميتها كذلك من اعتمادها على كتاب آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي بوصفه المصدر الرئيس لاستقراء نصوص الإمام المتعلقة بالسنة النبوية، مع تحليلها في ضوء المنهج الموضوعي؛ بما يساعد على رسم صورة متكاملة لمنهجه، والإفادة من تجربته في الدراسات المعاصرة المهتمة بخدمة السنة النبوية وخطاب الإصلاح الإسلامي.

أهداف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من المقاصد العلمية، من أبرزها:

- إبراز جهوده في العناية بالسنة النبوية من خلال تحليل أعماله وكتاباته وخطاباته.
- الكشف عن منهجه في توظيف الحديث النبوي في الإصلاح والتوجيه التربوي والفكري.
- إظهار منهج الدراسة الموضوعية في تحليل المحتوى الحديثي لكتاب آثار الإبراهيمي.
- الوقوف على أبرز السمات التي ميّزت تعامله مع الموروث الحديثي، واستنباط الدروس المستفادة من ذلك.
- الإسهام في إحياء تراث الإمام الإبراهيمي والتعريف به، من خلال دراسة ما جُمع من آثاره.

الدراسات السابقة:

على الرغم من المكانة العلمية التي يحظى بها الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وكثرة الدراسات التي تناولت حياته وفكره، فإن الدراسات التي خصصت جهوده في خدمة السنة النبوية أو منهجه في التعامل مع الحديث النبوي ما تزال محدودة. وقد أمكن الوقوف على عدد من الدراسات التي تتقاطع مع موضوع هذا البحث، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة.

الاتجاه الأول: الدراسات التي تناولت شخصية الإمام الإبراهيمي وفكره الإصلاحي، وركزت على آرائه في الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي والسياسي، مع الإشارة إلى اعتماده على القرآن الكريم والسنة النبوية في بناء مشروعه الإصلاحي، غير أنها لم تتناول منهجه في التعامل مع الحديث النبوي بالتحليل والاستقراء. كما هو ظاهر في مقال "الأسس الأخلاقية لمنهج الإصلاح الاجتماعي عند محمد البشير الإبراهيمي".

والاتجاه الثاني: الدراسات التي عالجت الخطاب الأدبي والفكري للإبراهيمي، وتناولت أساليبه البلاغية أو تناصه مع النصوص الشرعية، بما في ذلك الحديث النبوي، إلا أن عنايتها انصبت على الجانب الأدبي أو البياني، ولم تهدف إلى دراسة منهجه في فهم السنة أو توظيفها.

أما **الاتجاه الثالث**، فيتمثل في الدراسات العامة التي تناولت جهود علماء الجزائر في خدمة السنة النبوية والحركة الإصلاحية الحديثة، وقد أشارت إلى دور الإمام الإبراهيمي ضمن جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دون أن تفرد منهجه في التعامل مع السنة النبوية بدراسة مستقلة. كما في رسالة "منهج الشيخ البشير الإبراهيمي في الدعوة إلى الله من خلال مقالته في جريدة البصائر - دراسة تحليلية".

ويتضح من خلال استعراض هذه الدراسات أن موضوع منهج الإمام محمد البشير الإبراهيمي في التعامل مع السنة النبوية وتوظيفها في الخطاب الإصلاحي لم يحظ – في حدود اطلاع الباحث – بدراسة مستقلة تجمع نصوص الإمام المتعلقة بالسنة، وتستقرئها استقراءً موضوعيًا، وتكشف عن أسسها المنهجية وخصائصها العلمية، وهو ما يسعى هذا البحث إلى معالجته.

خطة الدراسة:

قسمنا هذا البحث إلى مقدمة ومطلبين؛ المطلب الأول في تعامل الإمام مع الحديث وجاء في ثلاثة فروع، والمطلب الثاني في توظيفه للحديث النبوي في خطاباته جاء في أربعة فروع. مع التركيز على

توظيف الدراسة الموضوعية في تبويب الأحاديث واستنباط الفوائد منها. وفي خاتمة البحث تم إظهار أبرز النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: موقفه من الحديث النبوي

الفرع الأول: ذب الإمام الإبراهيمي عن حياض الحديث

أ- دفاعه عن الحديث النبوي: بذل الإمام الإبراهيمي مجهودا معتبرا في الدفاع عن الحديث النبوي، وقد رد على بعض الفرق والطوائف في مختلف توجهاتها، فقد كان يذم من يتعامل مع الحديث بالجمود وقصر النظر والاعتماد على العقل المحدود، بل يدعو إلى توسيع الفكر والركون إلى الإيمان فيما عجزت عنه الأفهام، كما يدعو إلى اعتبار الزمان عاملا مساعدا في فهم القرآن والسنة.

ونأخذ أربعة أمثلة عن ذلك؛ **المثال الأول** ما أورده الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضوان الله عليها فيما يستحب من الرقية أن الرسول ﷺ كان إذا اشتكى أحد الشيء منه، أو كان به جرح أو قرحة، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا، ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها "باسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، ليشفى به سقيمنا، بإذن ربنا"[1]. وقد علق عليه الإمام بقوله: "والعلماء القائمون على كلام الله سبحانه وسنة نبيه ﷺ لا يتلقونهما بالفكر الخامد والفهم الجامد، بل يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يظهر لهم حقائقهما، ويتركون للزمن وأطواره تفسير ما عنه أفهامهم عجزت، وقد ورد عن جماعة من فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تفسيرها بعد. يعنون أنه آتٍ وأن الآتي به وقائع الأكوان وحوادث الزمان وكل مفسر بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه. ولو أننا عرضنا حديث التربة والريق على طائفة من الناس مختلفة الأذواق متقسمة الحظوظ في العلم وسألناهم: ما العلاقة بين الشفاء وبين ما قام به الرسول ﷺ من أسبابه في هذا الحديث؟ فكيف سيجيبون؟"[2] ثم ذكر بعضا من تلك الطوائف معلقا عليها:

رده على أصحاب القراءات السطحية: نقل الإمام كلام من يأخذ بظاهر الحديث ونعتهم بالمتخلفين القاصرين لقولهم: تربة مدينة رسول الله ﷺ بِريقه ﷺ شفاء ما بعده من شفاء"[3].

وفي هذا رد على من ضيق واسعا بتفكيره الجامد أن قصر التربة على تربة المدينة والريق على ريق النبي ﷺ، مما يدلك على أنه ليس سطحيا في فهم الحديث.

رده على الأطباء: ثم ضرب مثالا عن فكر الطبيب المستغرب لحديث التربة والريق وذكر أنه سيقول: "هذا محال، في التراب مكروب -أي جرثومة-، وفي الريق مكروب، فأنَّى يَشْفيان مريضًا أو ينفسان عن مكروب"[4]. وقد صدق الإمام، فمن المعروف عن الأطباء المبالغة في الوقاية من الجراثيم التي عبر عنها الإمام باللهجة العامية (مكروب)، فأنى يقبلون خلط التراب المعرض للجراثيم مع الريق المملوء بالبكتيريا ووضعه على الجرح المفتوح ثم يكون ذلك شفاءً، لكن الإمام قدم حديث الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى على العقل القاصر الذي لا تظهر له الأشياء على أكمل حقيقتها، وهذا مجرب كما في حديث الذباب.

رده على الكيميائيين: فقال عنهم: "ويقول الكيمياوي -المختص في علم الكمياء-: ها هنا تفاعل بين عنصرين، لذا فدعوا التعليل، فالقول قول التحليل"[5].

ولا يخفى منهجهم في تقديم التجربة على الحس فهم أرباب التجارب، لكن الإمام يبدو من كلامه أنه قدم النقل الصحيح على العقل الذي يبدو صريحا.

رده على القوميين: ذكر أن ذوي المنازع القومية والوطنية -يقصد من همه تربة الوطن فقط-، ولو كانوا وثنيين: آمنا بأن محمدًا رسول الله ﷺ. فقد بين للناس أن تربة الوطن ممزوجة بريق أبنائه تَشْفي من القروح والجروح، وهذا منذ أربعة عشر قرنا، لكي يربط بين قلوبهم وبين تربته عقدًا من المحبة والإخلاص له وتعلقا به، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرر لهم من نعم الوطن نعمة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون فطرة أن تربة الوطن تغذي وتُروي، فجاءهم علم النبوة يقرر لهم أنها تَشْفي، فهذا الحديث ليس إرشادًا لمعنى طبي، ولكنه درس عظيم في الوطنية، ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب، فإنه إلى باب محبة الوطن أقرب... وما نرى ذلك الغريب المريض الذي قيل له فيم شفاؤك؟ فأجاب: شمة من تربة اصطخر، وشربة من ماء نهاوند إلّا من تلامذة هذا الدرس، ولقد زادنا إيمانًا به بعد إيمان أنه يقول: تربة أرضنا بريقة بعضنا، ولم يقل: تربة الأرض بريق بني آدم، فليس السر في تربة وريق ومرض، بل السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا فهذه - والله ربنا- صخرة الأساس في بناء الوطنية والقومية لا ما يتبجح به المفتونون"[6].

فقد دافع الإمام عن الحديث وجعله عاما وصالحا لكل مجتمع، ورد على من جعل من الحديث مصدرا لنصرة نزعته القومية أو القبلية والركون إلى دعوى الجاهلية. إذ كل خصص الأرض بأرضه والريق بريقه والمريض بمريضه.

رده على الروحانيين: ثم ذكر الروحانيين إذ يقولون إن هناك روحا طاهرة متصلة بالتربة التي منها المريض خلق وبنباتها ومائها تغذي، وفي جوّها هوائها تنفس كبده، من ريق منفوث نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها، فسر التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذي به قامت الأرض والسماوات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فبهذا العمل النفساني يحصل الشفاء. وإذا بعجائبها تجلّت النفوس لم يعد في الوجود عجيب. والظاهر من كلامه أنه لم يعارض تفكيرهم إلا ما قد يفهم من سياقه للكلام في البداية أنه لابد من اعتبار الزمن ولا ينبغي إهماله في التعامل مع الحديث، كما وضح ذلك في ختام كلامه في هذا الموضوع حيث قال: "ويقول غير هؤلاء ما يقول، وهذه المتون كاسمها متون، وهذه الأصول كاسمها أصول. وهكذا تأتي بعض المتون من كلام الله وكلام رسوله معجزة للعقول، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء، ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون، والعلوم حرف العقول، والزمان من وراء الكل يصيح أن انتظروا..."[7].

المثال الثاني: ما ذكره في مناسبة المولد النبوي الشريف، وما يحصل فيها من بدع مخالفة للهدي النبوي الشريف، حيث قال: "وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوي، يقتصر فيه على التجمير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة. ولقد حضرت- منذ سنوات- حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت عالمًا أزهريًا يقرأ على الناس قصّة مولدية- لعلها مولدية المناوي- فكان من بعض ما كان يقول: إن الرسول ﷺ كان يرى من أمام كما يرى من خلف بعينين خلقهما الله في قفاه، وكان بجانبي فقيه مقرئ، خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسر إليّ على سبيل الدعابة قوله: أبى الله إلا أن نكون أسبق منكم لكل شيء فعندنا من هذه الماركة - كلمة فرنسية قالها باللهجة الجزائرية يقصد بها الشاكلة- من العلماء من يقول ويكتب: إن رسول الله ﷺ لم يولد من السبيل المعتاد ..."[8]، وفيه ما لا يخفى من كونه مدافعا عن السنة النبوية الصحيحة، ومنكرا لكل ما يشوبها، وغير راض عما يحدثه أصحاب النفوذ آنذاك ممن لا يعنون

بتقصي الأحاديث الصحاح، لكن الذي منعه من الإنكار العلني هو ما مرت به الدعوة من ضعف في تلك الآونة.

وذكر في موضع آخر كلاما عن الموالد وما يكتب عنها وأنهم أوقفوا مقالات "تاريخ المولد النبوي في المغرب العربي" عن قصد لأنها طالت، وما كُتب منها يمكن أن يدخل في رسالة مستقلة، إذ الأمر المهم منها إنما هو الجانب التاريخي، أما فيما يخص الحكم الشرعي فيها فلا نقر ذلك الاستحسان المبالغ فيه من بعض من نقل الكاتب كلامهم من علماء تلك الحقبة، فهم يجعلون من حبّ المولود العظيم سببا في اقتراف بِدَع المولد، ومسوغًا لأعمال الملوك الذين لا هم لهم من تلك الحفلات إلّا الدعاية لأنفسهم، وقرن أسمائهم باسم الرسول ﷺ في مديح الشعراء، واستجلاب العامة بذلك كله.

فلو جعلوا تلك المحافل ذرائع لإصلاح حال الأمة، وحملها على الرجوع إلى السُّنَن النبوية الشريفة، والاهتداء بالهدي المحمدي، لَكان لفعلهم محمل سديد، وأثر حميد، لأن الأمور بمقاصدها. أما الحبّ الحقيقي الصحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي ينأى بصاحبه عن البِدَع، ويحثه على الاقتداء الصحيح، كما كان أسلافنا يحبّونه، فيُحيون بالاتباع سننه، ويذودون عن حوض شريعته ودينه، مِن غير ما احتفال بالموالد ولا إنفاق للأموال الطائلة التي تفتقر المصالح العامة إلى القليل منها فلا تجده"[9]. وهذا شيء من إنكاره العملي لما تحدثه تلك الاحتفالات من منكرات وبدع، لذلك وقف ضدها وحدّ من انتشارها، وبين ما هو أفضل من ذلك، وما ينبغي فعله مما يعود بالنفع على الدعوة والأمة.

المثال الثالث: حرصه على الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة حيث ذكر أنه يجمع شمل الأمة ويشد حبالها بكتاب الله تعالى ويجمع أوصالها بسنة نبيه ﷺ أما غيره فعلى خلاف ذلك، بل يدعون إلى الفرقة ومخالفة الطريق كما قال: "ويوجد فرق آخر بيننا وبينهم وهو أننا نذكّر الأمة بكتاب الله وما صحّ من سنّة نبيّه أما هم فيذكرونها بالطبل والمزمار"[10]. وقال في موضع آخر: "وأن أهل كل مذهب يرومون صياغة الدستور والقوانين التي تنبني على قواعده على قوالب مذهبهم، والمسألة بسيطة إذا حكّم أهل المذاهب كتاب الله والمتّفق عليه من حديث النبي ﷺ، ومعقّدة من جهة الواقع وهو أن مقلّدة المذاهب متعصبون لمذاهبهم، وإن خالفت الكتاب والسنّة بالاجتهادات المحضة"[11]. فبين - رحمه الله- أن الفرق الجوهري بينه وبين من لا يهتم بصحيح السنة هو التثبت في صحة المنقول، وغربلته مما قد يظن أنه من سنة الرسول ﷺ.

المثال الرابع: ما ذكره حول فضل وشرف العالم الرباني الخادم لدين الإسلام من أنه لا يوجد في الإسلام عمل أشرف قدرا، وأرحب أفقًا، وأوثق عهدًا، وأثقل تبعة، وأسمى منزلة، وأعظم أجرًا عند الله، من عمل العالم الرباني! لا لشيء إلا أنه وارث لمقام النبوّة وآخذ بأهم تكاليفها وهو الدعوة إلى الله سبحانه وتوجيه خلقه إليه وتربية نفوسهم، وتزكيتهم وتعليمهم وتدريبهم على الحق حتى يقبلوه ويفهموه، ثم يعملوا به ويعلموه غيرهم. فالعالم الرباني، بمفهومه الديني في دين الإسلام، قائد ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنّة الصحيحة وتفسيرهما العملي من فعل الرسول ﷺ وفعل أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، ومعونته الكبرى على الانتصار في هذا الميدان أن ينسى نفسه ويغوص في المعاني السامية التي جاء بها الدين الحنيف، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوّة أن يزكي ويعلم وأن يقول الحق بلسانه ويحققه بجوارحه ويصبر عليه، وأن ينصره إذا خذله الخاذلون، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوّة"[12]. وقد كان واحدا من هؤلاء عالما معلما خادما لهذا الدين، مجاهدا في سبيل الحفاظ عليه وتوصيله للجيل المغيب عنه بسبب الاستدمار.

ب- استشهاده بالحديث في معرض الثناء: قال في معرض ثنائه على أعمال رابح الفرقاني: "إن ألوان النفس لغريبة، وإن سلطان الخواطر عليها لنافذ، وإن تأثّر النفس الشاعرة بالشعر لأدنى إلى طبيعتها، وأسرع نفاذًا إلى سرائرها، أو لا... فما الذي طاف بنفس حزينة مطمئنة إلى الإيمان بالقدر، مرتقية من الإيمان به إلى الرضى به، فيطير بها من حديث: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[13]، مثلًا، ويقع بها على قول الشاعر: "ثناءٌ كعرف الطيب يهدى لأهله" ثم يقف بها عند هذا المصراع لا يتعداه، ولا يسمح لها أن تتعدّاه، مع حفظها له ولما قبله، وإيداعها إياه في الحافظة التي لا تضيع ولا تخون [14].

وهذا دأب الإمام في دروسه وخطاباته فقد كان يستشهد بصحيح السنة وقد ذكر أن من شكر الله شكر الناس، وأنه من الدين أن يعرف الإنسان قدر الناس ويعترف لهم بأفضالهم، ومن فضل هذا الإمام علينا أن ترك لنا هذا التراث الزاخر والبحر المنهمر الذي لازال الناس ينهلون من فيضه ويستفيدون من نثره وقرضه، فشكر الله له جهده ورفع الله له في الجنة ذكره.

الفرع الثاني: جهوده في شرح الحديث النبوي الشريف

ذكر نجل الإمام في كتاب الآثار أن الإمام التقى بالشيخ محمد الغزالي فكان بينهما حوار ماتع يظهر من خلاله فقه الإمام وحدة نظره، وحكى هذه القصة الغزالي بنفسه، وذكر أنه من الخطإ أن يتصور الناس أن الإمام مجرد خطيب ثائر - مشيرا إلى حدة الإمام في خطاباته - بل قد كان فقيهًا ذكي الفكرة بعيد النظرة صاحب نزعة إصلاحية. ثم أورد الحوار الذي جرى بينهما لما سأله الإمام قائلا له: لعلك قرأت في السيرة الشريفة أن أصحاب نبي الله ﷺ ما كانوا ينصرفون عن مجلسه إلَّا على ذَوَاق. فما الذواق الذي ينعمون به في مجلس رسول الله ﷺ؟ فأجابه الغزالي بعد تريث أن قال: لعلهم كانوا يتناولون بعض الأطعمة أو الأشربة كما يقع في عصرنا هذا عندما تُقَدِّم للأضياف والوافدين أقداحًا من الشاي أو غيره... فكأنه خيب ظن الإمام فيه، إذ المتوقع من الغزالي إجابة أفضل من هذه، بل كان عليه أن ينأى بالصحابة رضوان الله عليهم أن يكون همهم في مجلس رسول الله ﷺ الأكل والشرب. ثم أفاض عليه الإمام من فقهه وسعة علمه وحدة نظره فقال له: إنه تذوق أرقى، ألا تذكر الحديث الشريف: "ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا"[15].

فالمجالس النبوية تظللها الحكمة، ومقام النبي ﷺ فيه ترقيق القلوب، ورفع المستوى، وتخليص الروحانية من شوائب الأرض، وجعل البشر في مصاف الملإ الأعلى... فما ينصرف أحد عن هذا المجلس الزكي إلا وقد تذوق نازلًا من السماء، ولا يعود إلى أهله إلا بذخر يعليه ويعليهم. ثم قال الغزالي إن هذا المعنى كان جديدًا علي، غير أني شعرت بأنه الحق، وأنه أولى كثيرًا من تفسير الذواق بأنه طعام أو شراب..."[16]. فقد أثبت له الغزالي هذا الملكة الفقهية التي تنبئ عن رسوخ قدم الإمام في الفقه والاستنباط، كما أن هذا الحوار يوضح لنا تواضع العلماء والرجوع إلى الحق متى ما ظهر لهم.

الفرع الثالث: حرصه على تطبيق السنة

ومن حرصه على تطبيق السنة النبوية ما يبثه في الناس من حث ووعظ على الاهتداء بهدي النبي ﷺ والعمل بأحاديثه والأخذ بوصاياه، وضرب الإمام في ذلك أمثلة كثيرة، نذكر منها ما يلي:

سنة الأضاحي: "إن سنّة الأضحية مرغب فيها من نبينا ﷺ من كل قادر عليها لا تجحف بحاله، ولما كانت قربةً إلى الله فإنه يشترط فيها أن تكون كاملة الأجزاء، سليمة من العيوب لقوله تعالى في مقام الكمال: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92]، ولقوله تعالى في مقام الذمّ: ﴿وَيَجعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكرَهُونَ﴾ [النحل: 62]. وقد كان نبيّنا ﷺ يرغّب في التصدق من لحمها على الفقراء[17] في أعوام المجاعة

والفقر كعامنا هذا، وينهى عن الادخار في مثل هذه الأحوال، فأجمعوا أيها الناس- على سنّة رسول الله- بين الأكل والصدقة على الفقراء، فإن الوقت وقت عسير، وإن عدد الفقراء - وهم إخوانكم- كثير"[18]. وهذا منه شحذ للهمم، ودفع للنفوس للقيام لتطبيق سنة الأضحية التي كان الرسول ﷺ مواظبا عليها، فمن قدر عليها لا ينبغي له تركها خاصة في زمن الفاقة، فيتأكد الأمر بالتضحية والتصدق على الفقراء من لحومها. كما قال النووي في شرحه للحديث السابق بعد أن ذكر مذاهب العلماء في توجيه النهي عن الادخار: "ولو وقع مثل تلك العلة اليوم فدفت دافة واساهم الناس"[19].

سنة الوعظ: قال الإمام: "يجب على الشيوخ الواعظين للناس أن يتّعظوا في أنفسهم [أولا] قبل أن يعظوا غيرهم، فإن الوعظ إذا لم ينفع صاحبه لم ينفع الناس، ومن لم يكن متأثّرًا بقوله، لم يكن مؤثرًا به في الناس. وعليهم أن يقوموا بما انتدبناهم فيه خيرَ قيام، وأن يؤدّوا حق الله عليهم في النصح والتذكير، وأن يركزوا في تذكيرهم على صريح الآيات القرآنية، وما صحّ من حديث رسول الله ﷺ، وأن يضربوا الأمثال بسيرته وسيرة أصحابه- رضوان الله عليهم"[20].

وصدق فيما قاله إذ الكلام إن خرج من الأفواه فلا يعدو الآذان، أما إن خرج من سويداء القلب فلا مقر له إلا في سويداء قلوب المتلقين، ولا يكون ذلك إلا من اتعظ بكلامه قبل أن يعظ به غيره، وخير ما يتعظ به الإنسان قرآن صريح وحديث صحيح.

استشهاده بهدي السلف في الرجوع إلى القرآن والسنة: يرى الإمام أن علم السلف أكمل وأحكم وأنهم يتحاكمون إلى القرآن والسنة عند الاختلاف، وفي هذا يقول: "وكان العلماء يردّون كلّ ما اختلفوا فيه من كل شيء، إلى كتاب الله وسنّة رسوله، لا إلى قول فلان، ورأي فلان، فإذا هم متّفقون على الحق الذي لا يتعدد." ثم ذكر قصة الإمام مالك مع ابن مهدي في ضرورة الاتباع، بل حذره عن مغبة الابتداع لما قال له ابن مهدي: إنما هي بضعة أميال أزيدها فقال له الإمام مالك: "أوَ ما قرأت قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَن أَمرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتنَةٌ أَو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، وأية فتنة أعظم من أن تسوّل لك نفسك أنك جئت بأكمل مما جاء به رسول الله ﷺ أو كلامًا هذا معناه ... ثم تلا قوله تعالى: ﴿اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم﴾ [المائدة: 3]، وقال كلمته الجامعة التي كأن عليها لألاء الوحي، وهي قوله: "فما لم يكن يومئذٍ دينًا فليس اليوم بدين".

وفي هذا استشهاد منه واضح بضرورة التمسك بالهدي النبوي وعدم الخروج عنه ولو بقدر أنملة، وإلا فالوعيد قد جاء بنص الآية الآنفة الذكر، كما ذكر أبو بكر الجزائري في تفسيره: "وهذا عام للمؤمنين والمنافقين وإلى يوم القيامة فليحذروا أن تصيبهم فتنة وهي زيغ في قلوبهم فيموتوا كافرين، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والعذاب ألوان وصنوف"[21]، ثم أردف الإمام قائلا: "وكانوا يحكمون دينهم في عقولهم، ويحكمون عقولهم في ألسنتهم، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل، ويعدون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرّف، ومع المجملات ميزانًا للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال"[22]. وهذا كلام في غاية النفاسة.

وبعد أن ذكر علماء السلف عرج إلى ذكر علماء الخلف، وبين الفرق بينهم وبين علماء السلف، وذكر ما ينبغي لعلماء الخلف أن يتصفوا به من فهم قطعية النصوص والرجوع في شرحها إلى أعمال وأقوال السلف، والعناية بالمقاصد العامة، وعدم إهمال عامل الزمان، والحذر من الزيادة أو النقصان إذ الدين كمل، فإن هم فعلوا ذلك أخرجوا لنا دينا مليئا بالحكمة والمقاصد، بعيدا عن الجمود والتقليد، مفتوح فيه باب الاجتهاد."[23].

ومن ذلك ذمه لأهل الأهواء والبدع وأصحاب الزهد المذموم، من الصوفية وغيرهم، فقال فيهم: "هم لا يذكّرون أمّة محمد، وإذا ذكروها لا يذكرونها بالقرآن كما أمر الله نبيّه، بل يذكرونها بمرغبات ومرهبات لم تأتِ على لسان صاحب الشريعة، ولم تتفق مع مقاصد شريعته، يزهدونها في العمل للآخرة بما شرعوه لها من أعمال بدعية ،ويزهدونها في العمل للدنيا بما يفترون على رسول الله من أحاديث في ذم الدنيا وبما أثر عن شواذ الصوفية الهادمين لحقائق الدين ببدع التبتل الدعي، والانقطاع الكاذب عن الدنيا، وبذلك أضاعوا على الأمة دينها ودنياها وأوصلوها إلى هذه الحالة التي نشاهدها اليوم"[24].

فالزهد الحقيقي ترك الحرام وليس التبتل والرهبانية. كما بين أن هذا من أسباب تخلف المسلمين عن الركب الحضاري فقال: "وما أخّر المسلمين إلا هذا الشرك الذي أبعد المسلمين عن عبادة الله. لأن الإنسان إذا تلفّت إلى جهات متعددة فإنه يصبح بلا إرادة، وما الإنسان إلّا إرادة وعزيمة فإذا صلحت إرادته صلحت عزيمته، وإذا أراد الإنسان شيئًا وسعى لتحقيقه فإن إرادته تؤدي به إلى نيل مبتغاه، ومن أصبح بلا إرادة أصبح مسيّرًا مثل ما هو حالنا اليوم. فانظروا ذات اليمين وذات الشمال تجدوا المسلمين مسيرين متأخرين في كل شيء، فإن أرادوا أن يكونوا كغيرهم من الأمم فعليهم بأن يقتدوا بالنبي ﷺ"[25]. فالنجاة الحقيقة والحل الأوحد هو الرجوع إلى الدين والوقوف على ما صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

كما أنه راعى فئة الشباب اهتماما كبيرا، إذ بيدهم الشعلة وهم رجاء الأمة، فبين لهم المسؤولية الملقاة على عواتقهم فقال: "إن دينكم شوّهتْه الأضاليل، وإن سيرة نبيّكم غمرتها الأباطيل، وإن كتابكم ضيّعته التآويل، فهل لكم يا شباب الإسلام أن تمحوا بأيديكم الطاهرة الزيف والزيغ عنها، وتكتبوهُ في نفوس الناس جديدًا كما نزل وكما فهمه أصحاب رسول الله عن رسول الله، إنكم قد اهتديتم إلى سواء الصراط فاهدوا إلى سواء الصراط، إنكم لو عبدتم الله الليل والنهار لكان خيرًا من ذلك كله عند الله وأقرب زلفى إليه أن تجاهدوا في سبيله بهداية خلقه إليه[26].

المطلب الثاني: توظيفه للحديث النبوي في خطاباته

الفرع الأول: حث النفوس على المسارعة في الخيرات

بناء وإعمار المساجد: بعد خطبة بليغة في حث النفوس على الاجتماع لمواجهة الشر بالخير وبين أن أفضل محل لذلك هو بيوت الله، حث الناس على الإسهام في بناء الجامع وإعماره ثم أورد هذا الحديث لإيقاظ ذوي الهمم العالية والنفوس الغالية. "أيها السادة: إن لله في هذا الجامع حكمة، فقد كان مصداقًا للمثل الذي ضربه نبيّنا ﷺ بحال الثلاثة الذين دخلوا عليه وهو جالس مع أصحابه، فيما روينا في صحيح البخاري فأقبل عليه اثنان منهم وأعرض الثالث، ووجد أحد الرجلين فرجة فجلس فيها، وجلس الأخر خلف الصف استحياءً، فلما فرغ رسول الله ﷺ من حديثه قال: ألا أخبركم عن الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه"[27] [28].

الصوم: كان من دأب السلف التحضير لرمضان قبل حلوله بستة أشهر، ومن ذلك التحضير شحذ همم العوام من طرف أهل العلم، وهذا ما كان يقوم به الإمام بوعظه للناس وتذكيرهم بفضائل الشهر، وما فيه من عظيم الأجر، والاستشهاد على ذلك بما صح فيه من الأحاديث، وذكر أنه من مزايا هذه العبادة أنها عبادة سلبيّة، أي إنها ليس فيها عمل إيجابي من أعمال الجوارح، كالصلاة والحج، وحتى الزكاة فإن فيها نقلًا ودفعًا، وإخراجًا، أما الصّوم فإمساك عن شيء كان مباحًا في أيام غير أيام رمضان، ثم يرجع إلى أصله بعد مضي رمضان، والإمساك وإن كان عملًا إلا أنّه سلب وانتفاء، وسرّ هذه المزيّة يكمن في أنه أبعد العبادات عن الرياء الماحي للأعمال، حتى إن التسميع فيه - وهو قول الصائم: إني صائم- لا يحمله السامع على أنه

تمدّح بالصوم، وليس فيه عمل يُرى، ولا أثر حقيقي أو مصطنع كأثر السجود في الجباه، إلا الشحوب الذي يكون من المرض كما يكون من الصوم، ولهذا البعد من الرياء ورد في حديث قدسي: "الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ"[29] (30).

الصدقة: ومن حثه على الخير بعثه للنفوس على إخراج الصدقات في سبيل الله، وأن ما يملكه الإنسان من أموال هي في حقيقة الأمر أمانة استخلفه الله فيها لينظر ما يعمل فيها، فهو كالمسير لها لا المالك الحقيقي، ومما قاله: "فأنتم المسؤولون عنه عند الله وعند الناس، فلتنفقوا مما جعلكم الله مستخلفين فيه، ولتعلموا أن كل ما تنفقونه في هذا السبيل يعلي ذكركَم، ويزكّي أموالكم، ويعود عليكم وعلى أمّتكم بالنفع، وإن قبض الأيدي عن الإعانة مسبّة، وسوء مغبّة، وأن مقادير الأموال هي أقدار الرجال، و "أن الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة إلا من قال هاء وهاء"[31]، كما جاء في الحديث الصحيح. أما الفقراء والمتوسطون فقد أبلوا، وأما قادة الحركة فقد شادوا وأعلوا، وأما أمثالكم فقد جاءوا بالوشل، وأما المثبطون فقد باءوا بالفشل، وأما القافلة فهي تسير، فيها المعيي وليس فيها الكسير"[32].

الرفق بالحيوان: لم يقتصر حثه على الخير على الإنسان إنما طال الحيوان، وبين سماحة الشريعة في التعامل معه، وما ينبغي للإنسان أن يتصف به من الرحمة تجاه الحيوانات، بل تجاه كل كبد رطبة، وذكر في ذلك ما يلي: "وحرّر الإسلام الحيوان الأعجم من الإنسان، وحرّم عليه أن يحمله ما لا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو يعطشه، فإذا فعل به شيئًا من ذلك بيع عليه جبرًا بحكم الحاكم، وأوصى في الرفق بالحيوان وصايا زاجرة، وفي حديث نبوي أن امرأة دخلت النار بسبب هرة أمسكتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل خشاش الأرض[33]، وأن امرأة عاصية لله دخلت الجنة بسبب كلب وجدته يلهث عطشًا على حف بئر فأدلت خفها وسقته[34]، وما من شيء تفعله جمعيات الرفق بالحيوان في هذا العصر إلا وقد سبق الإسلام إلى أكمل منه"[35]، ومع الأسف كثير من الناس لا يرى إلا ما تنمقه هذه الجمعيات وينسى أن الشريعة رتبت جزاءً وعقابا على حسب معاملة الإنسان لهذا الحيوان.

الفرع الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد عرف عن الإمام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيف لا وهو من أبرز المجاهدين ضد الاستدمار الفرنسي وقد عانى الويلات منه، فكانت بيئته خصبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ضرب لذلك أفضل الأمثلة، ومن ذلك قوله: "ويضطلع بمهمة الإصلاح لشؤون البشر- بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد - صلوات الله عليه وسلامه - وخلفائه الراشدين- علماءُ الأمة الإسلامية، عملًا بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما: "العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"[36]، والإصلاح الديني المنشود هو عمل وقائي وعلاجي، أي مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أمانة في ذمة المؤمنين والمؤمنات ما دامت السماوات والأرض"[37]. فقد وظف هذا الحديث أيما توظيف، ونشر هذا الإرث النبوي بين المسلمين في الوطن وخارج الوطن.

الفرع الثالث: العمل السياسي

إن الإصلاح الحقيقي يبدأ من إصلاح الفرد نفسه، وأول شيء يجب إصلاحه صلة العبد بربه، وتكون خلال الصلاة، فمن ضيعها فهو لما سواها أضيع، وقد ذكر الإمام كلاما في هذا المعنى فقال: "إن إمامة الصلاة استخلاف عن رسول الله ﷺ، وإن مكانتها من الدين هي مكانة الصلاة نفسها، فإذا هانت في نظركم إلى هذه الدرجة فقد أهنتم الدين، ومن أهان الدين فهو غير حقيق بالانتساب إليه"[38]، ثم أورد أهميتها في

سياسة المجتمع، فقال: "وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم كلما غاب عن المدينة استخلف من ينوب عنه في الصلاة، كما يستخلف- أو قبل أن يستخلف- من ينوب عنه في الحكم بين الناس[39]، وكان إذا جهز سرية أو بعث بعثًا فأهمّ ما يوصي به قوله: وليصل بكم فلان؛ ولم يشغله مرض الموت عن الاهتمام بإمام الصلاة، فاختار لها أبا بكر، وقال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس؛ ولم يَكِل هذه المسألة العظيمة للصحابة، وفيهم جبال العلم وأفذاذ التقوى والدين، ولم يثنه عن اختيار أبي بكر رأي عائشة وحفصة في اختيار عمر[40]؛ وإن الصحابة- رضي الله عنهم كانوا يعتبرون إمامة الصلاة درجة فوق الخلافة العظمى، بدليل استدلالهم على استحقاق أبي بكر للخلافة بتقديم رسول الله إياه لإمامة الصلاة، وقال قائلهم: أفلا نرتضي لدنيانا من ارتضاه رسول الله لديننا"[41][42]؟ فبين لنا أن من أهمية الصلاة أن الصحابة رضي الله عنهم استنتجوا أحقية أبا بكر رضي الله عنه بالخلافة.

كما أنه مما يتأكد على العالم معرفته فقه الأولويات والمقاصد، والموازنة بين المصالح والمفاسد، فيعرف أعظم المفسدتين فيقدم أخفهما، ويعرف أعظم المصلحتين فيقدم أكبرهما، وقال في هذا الصدد: "وإنّ لنا في رسول الله لأسوةً حسنة، فقد كان يسكت عن أهون الشرين إلى حين، لخفة ضرره، أو عن أعظم الشرين إلى حين، ليرصد له القوى ويستجمع الوسائل، وكلاهما شر، وكلاهما باطل من يوم جاء الحق، ويا ليت قومنا يعلمون السر في مناجزته للشرك، وإرجائه للخمر، أو في تقديمه للتبني، وتأخيره للاسترقاق"[43].

وفي معرض الكلام عن العمل السياسي في الجزائر بعد الاستقلال أورد كلاما في سياق فصل الدين عن الدولة وخروج الاستعمار وكيفية استلام زمام الأمور. ومرجعه في ذلك هدي النبي ﷺ، حيث قال: "ومن تلك الكليات أن الإسلام شرطٌ أولي في المولي (بالكسر) وفي المولّى (بالفتح) وأن الأول يكون أعلى قدرًا وأرفع منزلة في الإسلام من الثاني، ذلك أن المولّي للإمام هو رسول الله ﷺ أو نائبه وهو الخليفة، أو نائب الخليفة وهو الأمير، أو نائب الأمير، وهم جماعة المسلمين مجتمعين، وهؤلاء كلهم أعلى منزلة في الإسلام من الإمام، وما كانوا كذلك إلا بحكم الإسلام، فهل هؤلاء الأئمة مع من ولّاهم بهذه المنزلة؟ وهل يرضى منهم الإسلام أن يكونوا بهذه المنزلة[44]؟

وذكر في موضع آخر الحديث الصريح في كون المنجى الوحيد مما تعانيه الأمة الإسلامية في زمانه - ولازال الأمر كذلك في زماننا- هو الرجوع إلى تعاليم الإسلام، فمن دونه ليسوا بشيء إلا غثاء كغثاء السيل، وقد قال في ذلك: "وأبلغ ما في تلك النذر المحمدية قوله ﷺ لمن سأله: أو من قلة فيها يا رسول الله؟ ... لَا بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل[45] لا منفعة فيه ولا غناء. نحن خمسمائة مليون فيما يعدّ العادّون، ولكننا مع هذه الوفرة الهائلة في العدد مستعبدون، قد نزع منّا البأس على أعدائنا ونزعت الرهبة منا"[46]. فليت شعري هل نصحى يوما ونرجع إلى الحل الوحيد الأسمى، ونتمسك بتعاليم ديننا.

ومن فقهه في الإصلاح فهمه أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، والتضحية من أسس المصلحين، وأساس ذلك الشورى التي أوصانا الله بها إذ قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] ثم ذكر في ذلك ما يلي: "لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة وألا يقيموا وزنًا إلّا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم، وقد آن أن يرجع لكلمة الأخوة- التي ابتذلت- معناها الحق، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي ﷺ"[47].

ومن العمل السياسي ذكره لمسألة الانتخابات وتشريك المرأة فيه، وإعطائها حقا في الانتخاب حيث قال: "إنما نقول إن الإسلام في جملته لا يزجّ بالمرأة في هذه المضايق، وفي كل ما يجُرُّ إليها، رفقًا بها وإبقاء على شرفها ورعاية لرقة شعورها، ولطافة جوهرها، لا احتقارًا لمنزلتها، ولا استخفافًا بشأنها، وإنه

ليسوّي بينها وبين الرجل في كثير من منازل الكرامة والاعتبار، حتى إنه ليجيز إجارتها للجاني وللفارّ بخربة، بدليل حديث "ويسعى بذمّتهم أدناهم"[48]، وحديث "أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ"[49]، وقد جرت الأديان والحضارات الأصيلة على هذا المنهاج الذي نهجه الإسلام في المرأة، إلى أن جاءت هذه الحضارة القائمة فأرخت للمرأة العنان، فزاغت الحرية المفرطة عن الاعتدال، فتعدّت طورها الطبيعي، فأصبحت مشكلة يعسر حلّها، لا إنسانًا يعسر إقناعه. وسيندم الفاتحون لهذا الباب، المنادون بإعطاء المرأة حق الانتخاب، يوم تصبح ظبية الوعساء أسد غاب، وتصبح النوائب مناهضات للنواب[50].

وفي هذا الكلام توضيح منه أن المرأة في عصره وبلده لا تصلح للانتخاب، بل لا ينبغي أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في اختيار مصير الأمة، وأورد حججا ليس هنا مكان بسطها، كما ذكر مكانة المرأة وكرامتها التي ينبغي أن تصان، وكيف أن الإسلام رفع من قدرها ورد لها الاعتبار المسلوب من قبل الحضارات الماضية.

الفرع الرابع: الإصلاح الاجتماعي

كانت دعوة الإمام للإصلاح شاملة لشتى الجوانب، ومما سلط عليه الضوء الجانب الاجتماعي، وأنه ينبغي لكل فرد في المجتمع أن يكون له ضمير حي، ينبهه إذا أخطأ ويذكره إذا نسي، فيكون بذلك فردا صالحا، وقد أشار إلى هذا بقوله: "وإن يقظة الضمير الذي سمّاه النبي -عليه الصلاة والسلام- وازع الله في نفس المؤمن، ومراقبته لأعمال صاحبه لَهي أعلى وأسمى ما جاء به الإسلام من أصول التربية النفسية"[51].

كما عالج مسألة المهور في الزواج، وبين ما صح فيها من الأحاديث مما ينبغي التعويل عليه، كي يسهل للشباب الزواج، وذكر أن رسول الله ﷺ زوّج مسلمة مؤمنة على أن يعلمها زوجها سورًا من القرآن، كما أنه اكتفى في تزويج امرأة أخرى بخاتم من حديد - لو وُجد- ليرشد إلى أن المال ليس له من الاعتبار في باب الزواج إلا كما لخاتم الحديد[52]"[53]، وهذا أصل في تيسير المهور وعدم المبالغة فيها خاصة في زمن الحاجة، ثم عاد يفصل في المسألة راجعا إلى الشواهد العلمية من فعل الرسول ﷺ، وعمل أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، إذ وجدها لا تحد من الأدنى ولا من الأعلى، فهذا رسول الله ﷺ أصدقَ نساءَه كما في الصحيح اثنتَيْ عشرة أوقية ونشًّا[54]، والأوقية أربعون درهمًا، والنش نصف الأوقية، فتلك خمسمائة درهم، أما عبد الرحمن بن عوف فتزوج على نواة من ذهب، وأقره رسول الله ﷺ بذلك، والنواة وزن معروف عندهم، قالوا في تفسيره إنه ربع النش، فهو خمسة دراهم. أما حديث الواهبة نفسها لرسول الله ﷺ فقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال لخاطبها: التمس ولو خاتمًا من حديد ثم زوّجه إياها بما معه من القرآن[55]، يعني بأجرة تعليمها سورًا من القرآن سمّاهنّ أما خمسة الدراهم، وخمسمائة درهم، فهي مال معدود، ولكنه ليس فيه تحديد للأقل ولا للأكثر"[56].

فبين الفقه في المسألة وهو لا حد للأدنى ولا للأعلى، إنما المقصد الأسمى هو التحصين بأي شيء يسمى ثمنا، ووضح ذلك في تتمة كلامه قائلا: "وأما أجرة التعليم فهي مال، ولكنه مجهول في قضية الواهبة، وأما خاتم الحديد فليس بذي بال، وكيفما قدّرت قيمته كانت أقلّ مما جعله الأئمة حدًّا أدنى، ورأيُنا فيه، وفهمنا لحكمته أنه رمز نبوي بعيد المغزى، عالي الإشارة، إلى أن ما يفتتن به الناس بمقتضى طبيعتهم من اعتبار المال في الزواج ليس مقصدًا شرعيًّا، وإن أحقر شيء مما يُسمّى مالًا كافٍ فيه؛ أما القصد الحكيم فهو من وراء ذلك: هو في الإحصان، وقمع الغرائز الحيوانية، وسكون القلب إلى القلب، وتحقيق حكمة الله في التناسل وتسلسل النوع، إلى غير ذلك من الحكم التي ليس منها المال"[57].

وهذا كلام ينبغي أن يجعل استهلالا لعقود النكاح كي يتذكر به من تذكر وينتصح به من يفيد فيه النصح، فما أحوجنا إليه في زمن عزف فيه الشباب عن الزواج.

ومما عرج عليه كذلك قضية العبيد وكيف عالجها الإسلام، فقال: "فجاء الإسلام بعلاج المعضلة، وهو أنه حرّم من أول يوم معاملة العبيد بالقسوة التي كانت مألوفة يرتكبها المالك لأنها شيء معتاد، ويتحمّلها العبد لأنها شيء معتاد فأوجب معاملتهم بالإحسان والرفق والرحمة، وبالغ نبي الإسلام في التلطّف والحنو على هذا الصنف حفظًا للكرامة الإنسانية، فسمّاهم إخوانًا للمالكين وفرض لهم المساواة معهم من المأكل والملبس وحدّد لهم مقدار العمل، فقال في حديثه المشهور الذي هو دستور كامل لهذه القضية في جمل قصيرة، ولفظه في حديث أبي ذر: "إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللهُ تَحْتَ يَدِهِ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا يُكَلِّفُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُ"(58) (59).

وقد جاء هذا الحديث وغيره كشرارة أولى للحد من العبودية وحسن المعاملة فيمن لازال فيه الرق، وقد بادر الصحابة إلى امتثال تلك المعاملة السمحاء التي جاء بها محمد ﷺ، وقال في ذلك: "ومن عرف مقدار تأثّر الصحابة بالدين ومبالغتهم في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ومسارعتهم في تنفيذها، عرف أنهم نفّذوا هذا الدستور بمجرد سماعه كما وقع لأبي ذر راوي الحديث، فإنه كان لا يستأثر بأكلة دون غلامه ولا يلبس حلة إلا ألبس غلامه مثلها"(60).

ثم وجه الكلام إلى الغرب الذين يتباهون بأنهم هم من منعوا العبودية وهم من حرروا العبيد، والشأن خلاف ذلك، فقال: "من لي بالباحث الغربي المنصف المُبَرَّإ من وصمة الغرض والحقد والهوى ليعلم مواقع الإنسانية في دين الإسلام - وما أكثرها- ثم يعلنها في قومه، وإذًا لأعلن كثير منهم إسلامه بإعلانها. ومن مواقع الإنسانية في الإسلام ما شرعه هذا الحديث العظيم في معاملة العبيد، فليعلم هؤلاء الباحثون الجاهلون لمحاسن الإسلام، أو المتجاهلون لها، وليعلم من بعدهم الواضعون للقوانين من بني جلدتهم، والمسيّرون لشعوبهم من الحكام ليعلموا جميعًا - فيما يعلمون- أن محمدًا ﷺ سبقهم من أربعة عشر قرنًا إلى إعلان حقوق الإنسان التي ما زالوا يتخبطون فيها بين السلب والإيجاب، وما زالوا ينقضون بالفعل ما أبرموه فيها بالقول، وليعلموا جميعًا أن محمدًا ﷺ سبقهم كذلك إلى إعلان حقوق العبيد وإقرار الكرامة الإنسانية لأول مرة في تاريخ العالم- بل نقولها جهيرة مدوية لا تتوارى بحجاب ولا تستتر بجلباب، أنه أعلن بحديثه السابق ولأول مرة في تاريخ الحضارة البشرية إلغاء الرق الذي يتبجحون بابتكاره"(61). وهذا حقيق لمن تأمله، فالإسلام وإن لم يصرح بمنعها فقد صرح بضرورة حسن المعاملة، بل حرم غيرها، والغرب وإن صرح بمنعها، فلا يزال يمارسها بمسميات مختلفة وأصناف غير معهودة، فشتان بين هذا وذاك.

خاتمة:

يُبرز هذا البحث مكانة العلم بوصفه جوهر ميراث الأنبياء، ويُظهر الجهود المتميزة للإمام محمد البشير الإبراهيمي في خدمة الحديث النبوي من خلال كتاباته وخطاباته الإصلاحية. كما يكشف عن منهجه في توظيف السنة النبوية في توجيه المجتمع وبناء الوعي، على الرغم من ضياع جزء من تراثه. وكان لجمع هذه الآثار جانبا مهما في الحفاظ على جهوده، مما يتيح للباحثين الاستفادة منها استخراج الدروس في خدمة الموروث الديني وإحيائه في الواقع المعاصر. وفيما يلي أبرز نتائج الدّراسة والتوصيات.

أولا: النتائج

توصل هذا البحث إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

- أن خدمة الحديث النبوي لم تقتصر على جهود المحدثين المتقدمين، بل امتدت لتشمل علماء الإصلاح في العصر الحديث، ومنهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
- تميّز الإمام الإبراهيمي بمنهج متوازن في التعامل مع السنة النبوية، حيث جمع بين الفهم العلمي العميق والتوظيف الإصلاحي والتربوي.
- كشفت أعماله وكتاباته عن حضور قوي للحديث النبوي في خطابه، مما يدل على وعيه بأهمية السنة في توجيه المجتمع وإصلاحه.
- أسهمت الجهود التي بُذلت في جمع آثاره في الحفاظ على جزء مهم من تراثه العلمي، وإتاحته للباحثين والمهتمين.
- أكدت الدراسة أن استحضار تجارب العلماء في خدمة الموروث الديني يُعدّ من الوسائل الفعّالة لإحياء الاهتمام بالعلم الشرعي وتعزيز دوره في الواقع المعاصر.

ثانيا: التوصيات

من خلال هذا البحث نوصي بما يلي:

- الاهتمام بجهود علماء الجزائر في خدمة الحديث النبوي.
- إبراز جهود الإمام الإبراهيمي من خلال كتاب الآثار في جوانب غير خدمة الحديث النبوي.
- دراسة منهج الإمام في تعامله مع الحديث النبوي.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1- أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (275هـ)، سنن أبي داوود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2009م.

2- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.

3- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (303هـ)، سنن النسائي، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، محمد أنس مصطفى الخن، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2018م.

4- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2009م.

5- أحمد بن حنبل (241هـ)، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط1، 2001م.

6- أحمد طالب الإبراهيمي (1447هـ)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.

7- محمد ناصر الدين الألباني (1420هـ)، صحيح سنن النسائي، مكتب التربية العربي، الرياض، ط1، 1988م.

8- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري (1439هـ)، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط5، 2003م.

9- محمد أبو عبد الله بن إسماعيل البخاري (256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ.

10- محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد (230هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م.

11- مسلم أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الهوامش:

(1) مسلم أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت، كتاب السلام، بَاب اسْتِحْبَابِ الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ وَالْحُمَةِ وَالنَّظْرَةِ، حديث رقم 2194، ج4، ص1724.

(2) انظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج1، ص353.

(3) انظر: المرجع نفسه، ج1، ص353.

(4) المرجع نفسه، ج1، ص353.

(5) المرجع نفسه، ج1، ص353.

(6) انظر: المرجع نفسه، ج1، ص353، 354

(7) المرجع نفسه، ج1، ص354.

(8) انظر: المرجع نفسه، ج1، ص334.

(9) انظر: المرجع نفسه، ج2، ص341.

(10) المرجع نفسه، ج1، ص120.

(11) المرجع نفسه، ج4، ص47.

(12) انظر: المرجع نفسه، ج4، ص109.

(13) أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داوود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2009، كتاب أول كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، حديث رقم4811، ج7، ص188. قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(14) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص577.

(15) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا، فهو مؤمن، ولإن [وإن؟؟] ارتكب المعاصي الكبائر، حديث رقم: 34، ج1، ص62.

(16) انظر: الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج4، ص6.

(17) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام. وبيان نسخه وإباحة إلى متى شاء، حديث رقم: 1971، ج3، ص1561.

(18) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج1، ص405.

(19) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، ج13، ص129.

(20) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص286.

(21) جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط5، 2003م، ج3، ص595.

(22) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج4، ص111.

(23) انظر: المرجع نفسه، ج4، ص111.

(24) المرجع نفسه، ج4، ص116، 117.

(25) المرجع نفسه، ج4، ص209.

(26) المرجع نفسه، ج4، ص271.

(27) محمد أبو عبد الله بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ، كتاب الأحكام، باب القضاء على الغائب، حديث رقم: 66، ج1، ص64.

(28) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج1، ص92،93.

(29) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى {يريدون أن يبدلوا كلام الله} {لقول فصل} حق {وما هو بالهزل} باللعب، حديث رقم: 7492، ج9، ص143.

(30) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج4 ص198.

(31) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، حديث رقم: 94، ج2، ص687.

(32) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3 ص215.
(33) مسلم، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، حديث رقم: 2242، ج4، ص1760.
(34) المرجع نفسه، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، حديث رقم: 2245، ج4، ص1761.
(35) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج4 ص360.
(36) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2009، كتاب أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فَضْلِ الفِقهِ على العِبادةِ، حديث رقم: 2877، ج4، ص617 (قال الأرناؤوط حسن لغيره). وأبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داوود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الالة العالمية، دمشق، ط1، 2009، كتاب أول كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم: 3641، ج5، ص485 (قال الأرناؤوط حسن بشواهده).
(37) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج2، ص7.
(38) المرجع نفسه، ج3، ص153.
(39) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، حديث رقم: 4416، ج6، ص3.
(40) المرجع نفسه، كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجنازة، حديث رقم: 664، ج1، ص133.
(41) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص153، 154.
(42) محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، كتاب الصحابة، باب ذكر بيعة أبي بكر، ج3، ص136.
(43) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص159.
(44) المرجع نفسه، ج3، ص190.
(45) أبو داود، سنن أبي داوود، كتاب أول كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، حديث رقم: 4297، ج6، ص355، (حديث حسن).
(46) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج4، ص64.
(47) المرجع نفسه، ج5، ص317.
(48) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط1، 2001، مسند الخلفاء الراشدين، من أخبار عثمان بن عفان، حديث رقم: 959، ج2، ص267، 268 (صحيح لغيره).
(49) البخاري، صحيح البخاري، كتاب باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب، باب أمان النساء وجوارهن، حديث رقم: 3179، ج4، ص261.
(50) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص130.
(51) المرجع نفسه، ج4، ص67.
(52) البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، حديث رقم: 5029، ج6، ص192.
(53) انظر: الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص295.
(54) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، محمد أنس مصطفى الخن، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2018، كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة، حديث رقم: 3347، ج6، ص219. صححه الألباني، صحيح سنن النسائي، مكتب التربية العربي، الرياض، ط1، 1988، كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة، حديث رقم: 3139، ج2، ص704 (صحيح).
(55) انظر الهامش رقم 52.
(56) انظر: الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج3، ص325.
(57) المرجع نفسه، ج3، ص325.
(58) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، حديث رقم: 30، ج1، ص15.
(59) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، المرجع نفسه، ج4، ص108.
(60) المرجع نفسه، ج4، ص108.
(61) المرجع نفسه، ج4، ص108.